المحاضرة الأولى:

الحياة الثقافية والأدبية في الجزائر خلال القرن19

أولا: الحياة الثقافية:

1- المستوى الثقافي في الجزائر قبل 1830:

تميزت الحياة الثقافية في الجزائر قبل فترة الاحتلال الفرنسي بالطابع الإسلامي، باعتباره نظام اجتماعي وتعليمي وحضاري يربط بين أعضاء الأمة الجزائرية، ولقد كانت الجزائر في مستوى ثقافي محترم، "وقد شهد عدة فرنسيين شاهدوا الجزائر في فترة الاحتلال، بأن الأمية كانت منعدمة تقريبا في الجزائر، وأن سكان الجزائر قد يكونون أكثر ثقافة من سكان فرنسا، فكل الناس تقريبا يعرفون القراءة والحساب كما يقول روزي، وقد أكد هذه الفكرة "والسان ايسر هازي" الذي يرى أن نسبة الأمية في الجزائر كانت في 1830 أقل منها في فرنسا".

ولم يكن للسلطات العثمانية أي دور في انتعاش الحركة الثقافية، فجل اهتمامهم مُنصب حول الجانب العسكري. إن الدور الأساسي يعود لنظام الأوقاف[1]، الذي كان المورد الأساسي للمدارس القرآنية والمعاهد والمساجد والمحاكم، مما خلق نوع من الوحدة الثقافية. كما تميزت الثقافة الجزائرية بالتسامح والانفتاح، فلكل الطوائف (يهود، مسيحيون...) الحرية في ممارسة ثقافتهم وقيمهم وطقوسهم. ثم بدأت الأوضاع في التدهور مع دخول الاستعمار الفرنسي في سنة 1830.

2- المناخ الثقافي في الجزائر بين 1830-1900:

مع دخول الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر، شرع في بسط نفوذه السياسي والعسكري، الرامي إلى تحقيق أهداف على المدى الطويل، تتمثل في ضمان البقاء على هذه الأرض إلى الأبد، ولذلك فقد سعى إلى هدم الثقافة الجزائرية الإسلامية

---

[1] حبس أصل من الأصول وجعل مداخيله لفائدة اجتماعية أو دينية مثل بناء مساجد وإدارة تكاليفها من الأوقاف المخصصة لها (أراضي، دكاكين، أسواق...).

المحلية واستبدالها بثقافته الفرنسية ذات البعد المسيحي. على الرغم من الفشل الذريع الذي لاقته هذه السياسة، نظير تشبع الجزائريين بالروح الوطنية، والإيمان الراسخ بكل ثوابت الإسلام ورفض كل أشكال التهجين والإدماج الثقافي.

ارتكز المشروع الفرنسي على تخريب مقومات وثوابت الأمة الجزائرية، بمحاولة تزييف أصولها التاريخية، ومحو لغتها العربية، والعبث بدينها الإسلامي، فاستبدلت المساجد بالكنائس وتم التضييق عليها، وبدأت عملية هدم دور تحفيظ القرآن، "وتعرضت الزوايا والأضرحة لما تعرضت له المساجد من الهدم والإهمال والتحويل عن مقصد الواقفين واغتصبت السلطات الفرنسية أوقافها أيضاً. وبذلك حرمت آلاف الموظفين والعلماء والفقراء من حقوقهم المشروعة، التي نصت عليها الأوقاف. وهذه البنايات الدينية كانت كثيرة وذات أحجام" والواضح أن تركيز الاستعمار على المؤسسة الدينية بمختلف صورها، راجع لدورها المحوري على الصعيد الروحي المعنوي، وعلى صعيد التنظيم الاجتماعي، الثقافي، وحتى السياسي.

اعتمد الاستعمار الفرنسي سبيل "الإبادة الثقافية" لطمس الهوية العربية الإسلامية للشخصية الجزائرية، "فأوجد، إما فراغا ثقافيا هائلا في صفوف عامة الشعب، أو اضطرابا شتت صفوف المتعلمين، ولم يبق من معالم التراث سوى معلم الدين والقرآن والمداح، وهو الشاعر الشعبي. وهؤلاء أبقوا صوت الرفض حيا وإن كان ضعيفا خافتا". في حين استسلم الكثير من وجهاء الثقافة إلى إغراءات السلطة الفرنسية وامتيازاتها فساندوا مشاريعها وأهدافها الخفية والمعلنة.

أدرك الاحتلال الفرنسي الدور البالغ لمحور المعرفة والتعليم في يقظة الشعب الجزائري وثباته ومقاومته، فسارع إلى زعزعته عبر شل دور التعليم والمدارس وتقليص عدد المتمدرسين، كما "لم يرحم الاحتلال خزائن الثقافة، فنهب جنوده الكثير من المخطوطات العربية القيمة، وأتلف بعضها، وذلك بشهادة رحالة ألماني هو موريس فاغنر (Maurice Wagner) الذي أقام في الجزائر مدة طويلة وذلك بعد احتلالها بست سنوات، وشارك في الحملة على مدينة قسنطينة".

ولعل الهدف الرئيسي من وراء هذا التخريب الممنهج هو توطيد "سياسة ثقافية ترمي في جميع جوانبها إلى عزل الجزائريين عن أصلهم ومقوماتهم الأساسية ليسهل ابتلاعهم ومسخهم، كما يسهل اقتلاع الشجرة بعد اجتثاث جذورها التي تمدها بالحياة والنماء. فشن لذلك حربا لمقاومة الثقافة الجزائرية، التي هي في مجملها ثقافة عربية إسلامية مركزا في حربه على ركيزتيها الأساسيتين: اللغة والأدب، وعلى وسيلتهما الأكثر اتصالا بالجمهورية ألا وهي الصحافة". حتى يتسنى له عزل أصوات النخب الجزائرية ومنعها من التنديد بجرائم المحتل الغاشم.

ففي ميدان اللغة، مُنع استعمال وتعلم العربية، وعمل المحتل على إضعافها بشتى الوسائل، إما باستبدالها باللغة الفرنسية، أو بتقوية اللغة البربرية في بلاد القبائل عبر ترجمة الإنجيل باللغة البربرية. وهو مدخل ذكي اعتمده المستعمر لإحداث شرخ هوياتي، وتشتيت تلاحم العرب والبربر تحت راية الإسلام، فأصبحت اللغة في الجزائر عبارة عن لهجة ركيكة في مزيج من اللغة الدارجة والفرنسية.

ثانيا: الحياة الأدبية في الجزائر حتى سنة 1900:

1-الشعر:

تعود أصول الحداثة في الشعر الجزائري إلى النصف الأول من القرن 19، ولئن كان الشاعر المصري "محمود سامي البارودي" رائدا للشعرية في المشرق، فإن "الأمير عبد القادر" يعد رائدها في المغرب العربي، وكلاهما انتهج نهج الإحياء، بالعودة إلى استلهام عصور القوة والإشراق في الشعر العربي. كما يشتركان في مزجهما بين البطولة العسكرية والريادة الشعرية.

وما عدا نبوغ الشاعر "الأمير عبد القادر"، فإن المناخ العام كان في حالة يرثى لها، "إن الأدب الجزائري، خاصة الشعر، قد أصيب بركود شامل طوال القرن التاسع عشر، فلا نكاد نعثر في السبعين سنة الأولى للاحتلال إلا على أدب هزيل ركيك في جانبيه المضموني والشكلي، فهو لا يعرف غير المدائح وقصائد المناسبات ميدانا له، ويبقى بعيدا عن المجتمع والسياسة ومعترك الحياة". ولو أن الناقد "عبد الملك

مرتاض" يعترض على بعض السلبيات التي يعتبرها جزءا لا يتجزأ من طبيعة الشعر مثل فكرة "شعر المناسبات".

يقول عن ذلك: "أما ما يزعمون من أن شعراءنا كانوا في جملتهم وتفصيلهم شعراء مناسبات وأعياد، فلا عليهم أن يكونوا شعراء مناسبات ألف مرة ومرة. وأي شاعر على الأرض في القديم أو في الحديث، في الشرق أو في الغرب، لم يك شاعر مناسبات؟ والشاعر الذي لا يكون من هذا الصنف ليس بشاعر، بل ليس بإنسان على الإطلاق. لأنه إما أن لا يتأثر بما يضطرب حوله، وإما أنه يعيش في عزلة ذاتية تخيم عليها الدموع، ويكتنفها الأوهام والأباطيل". ومن نماذج شعر المناسبات، فخريات الأمير عبد القادر في انتصاره على الفرنسيين:

سلوا عنا الفرنسيس يُخبروكم ويصدق إذا حكوا منهم مقال

فكـــــم لي منهم من يوم حرب به افتخر الزمان ولا يزال

ومما جاء من قصائد الأمير عبد القادر في موضوع المدح، مدحه الخليفة العثماني والدعاء لجيش المسلمين بالتأييد والنصر، وذلك في قصيدة "يا رب"، والتي يقول فيها:

أحيا الجهاد لنا من بعد ما درست وضاعف المال أنواعا وألوانا

..

فانصره نصرا عزيزا لا نظير له حتى يزيد العدا هما وأحزانا

واجمع إلهي قلوب المسلمين على وداده، أعله، أعظم له شانا

..

واهدم وزلزل وفرق جمع شانئه واجعل فؤادهم بالرعب ملآنا

وانصر وأيد وثبت جيش نصرته أنصار دينك حقا آل عثمانا

الباذلون بيوم الحرب أنفسهم لله كم بذلوا نفسا وأبدانا

يتجلى البعد الديني في أشعار هذه الفترة، لأنها ولدت في مناخ تأطره المؤسسات الدينية، وتمسك الجزائريين الشديد بعقيدتهم الإسلامية، "وانحصر هذا

الشعر نتيجة تعلقه بالزوايا والمساجد، في الأغراض الدينية، فتشابهت، نصوصه فإذا هي من لون واحد، وإذا هي في الأغلب الأعم تتجه إلى مدح المشائخ والكبراء، والتغني بمآثر الأولياء والصالحين، والتغزل في الذات الإلهية، والتوسل بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم وآل البيت وغيرها من الموضوعات التي لا تخرج عن هذا النطاق الصوفي الديني إلى حد جعلت الشعر الديني النافذة الوحيدة التي بقيت للأدب العربي في الجزائر، يتنفس منها".

ولم تقتصر حالة الضعف على جانب المضمون فحسب، بل أخذ البناء الفني حظه من الركاكة والانحطاط والتقهقر، فلم يبق –على حد تعبير محمد ناصر– من عناصر القصيدة غير أجراس التفعيلة، "وشاع التقليد المتكلف، واتخذ له طابع التشطير، والتخميس، والمعارضة، والتضمين ذلك لأن مفهوم الشعر نفسه لم يكن واضحاً في أذهان هؤلاء النظامين فحسب الواحد منهم أن يقلد، أو يحاول أن يقلد ما حفظه من قصائد القدماء ويخيل إليه أنه في استطاعته أن ينسج على منوال، مشاهير الشعر العربي القديم".

مراجع المحاضرة:

1- مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تق: محمد الميلي، (د.ط)، دار الكتاب العربي للطباعة النشر التوزيع والترجمة، الجزائر، 2014.

2- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ط1، دار الغرب الإسلامي، الجزائر، 1998، الجزء الخامس (1830-1954).

3- نور سلمان: الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، (د.ط)، دار الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.

4- يحيى الشيخ صالح: شعر الثورة عند مفدي زكريا، ط1، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، 1987.

5- عبد المبك مرتاض: نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر 1925-1954، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983.

6- سليمان عشراتي: الأمير عبد القادر الشاعر مدخل إلى تحليل الخطاب الشعري في محطة المابعد، ط1، دار القدس العربي للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر.
7- محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية 1925-1975، ط2، دار الغرب الإسلامي، لبنان، (د.ت).